مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور/ أحمد فتحى سرور[1]

وزير التربية والتعليم السابق ورئيس مجلس الشعب

يُعد كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى صدر لطه حسين فى عام ١٩٣٧ أى منذ أكثر من نصف قرن – مرجعًا هاما فى التربية ، ومصدرًا أساسيًّا لإصلاح نظام التعليم ، والقارئ لهذا الكتاب الهام يلحظ منذ البداية إلحاحه على دحض دعوتين أساسيتين أشاعهما الاستعمار الأجنبى ، وهما :

١ – تفوق العقلية الأوروبية وتفوق الجنس الأبيض على سائر عقليات وأجناس قارات العالم الأخرى .

٢ – اقتصار التعليم على الصفوة من أبناء الإقطاع أبناء كبار العاملين فى الإدارة الإنجليزية .

وهو يدحض الدعوة الأولى مثبتًا تفوق العقل المصرى والعقل العربى على مر العصور ، والدليل على ذلك هذا التراث الحضارى الضخم سواء تراث مصر الفرعونية أو تراث مصر الإسلامية ويؤكد على أن الإبداع العقلى والتميز الحضارى يرتبطان بالتحرر السياسى والتخلص من قيد الاستعمار ، ويعد التعليم قوة من قوى التحرر ، وهو قوة تصنع التقدم وتحقق الرخاء والازدهار .

أما الدعوة الثانية فيدحضها عميد الأدب العربى بتأكيده على مبدأ ديمقراطية التعليم ، فعندما يصبح التعليم حقًّا للجميع ، وعندما تنمحى الأمية فى البلاد ، ويتحقق مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية ، عندئذ سوف توجد التربة الخصبة التى تبذر فيها بذور المعرفة ، وتسمح بإعداد جيل من المثقفين والعلماء الذين يثرون الثقافة ويقدمون للمجتمع ما هو نافع ومفيد .

---

(١) من كلمة ألقاها الأستاذ الدكتور أحمد فتحى سرور عندما كان وزيرًا للتربية والتعليم فى جامعة المنيا .

فما أشبه الليلة بالبارحة .. لقد وضع طه حسين منذ نصف قرن أو يزيد يده على مفاتيح إصلاح التعليم وهى تمثل جزءا كبيرًا من خطتنا لإصلاح التعليم وتطويره ، ومن ثم فنحن نعترف لعميد الأدب العربى بفضل السبق والريادة فى تناول قضايا التعليم وتأكيده على مبادئ ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص ، ومجانية التعليم ، وتحديث البنى أو الهياكل ، وتطوير البرامج والطرائق ، والاهتمام بشئون المعلمين .

من أهم المبادئ التى أكد عليها طه حسين فى كتابه القيم (مستقبل الثقافة فى مصر) ما يأتى :

١ – المطالبة بإشراف الدولة على شئون التعليم ، فالدولة هى المسئولة عن تكوين العقلية المصرية تكوينًا يتلاءم والحاجة الوطنية الجديدة .

٢ – أن التعليم الإلزامى ركن من أركان الحياة الديمقراطية الصحيحة ، بل هو ركن من أركان الحياة الاجتماعية . والدولة الديمقراطية ملزمة بأن تنشر التعليم الأساسى «لأنه وسيلة يجب أن تكون بيد الفرد ، ليستطيع أن يعيش ، وهو أيسر وسيلة فى يد الدولة لتكوين الوحدة الوطنية ، وإشعار الدولة بحقها فى الوجود الحر ، وواجبها الدفاع عن هذا الوجود» فالدولة بهذا التعليم الأساسى تضمن البقاء والاستمرار ووحدة التراث الوطنى ..

٣ – لكى يتم التعليم الأساسى يجب تكوين جيل من المعلمين الأكفاء .

٤ – إن الفقر والغنى يجب ألا يكون لهما أثر فى تحقيق العدل والمساواة ، ولذا يجب ألا نفرق بين الغنى والفقير فى فرص التعليم .

٥ – يجب أن يسمح لأبناء الشعب بمواصلة فرص التعليم ما دامت تسمح قدرتهم الذهنية بذلك .

ويرى الدكتور طه حسين أن إصلاح التعليم يمكن أن يتحقق عن طريق أربعة أمور :

– إنشاء مجلس التعليم الأعلى ، على أن تمثل فيه فروع التعليم كلها ، وتمثل فيه عناصر ليست من وزارة المعارف .

– إعادة تنظيم مراقبات التعليم (الإدارات التعليمية) .

– إصلاح التفتيش (التوجيه الفنى) وإعادة النظر فيه .

– إصلاح نظام الامتحانات واعتبار الامتحان وسيلة وليس غاية .

وبالإضافة إلى ذلك يتعرض الدكتور طه حسين لقضية اللغات الأجنبية فى مصر ، ويطالب بأن تتحرر وزارة المعارف من الجمود ، وأن تتيح فى مدارسها الفرصة لدراسة لغات أخرى غير اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وخاصة أن هناك حاجة ماسة لتعليم اللغات . وفى نفس الوقت يؤكد طه حسين على قضية الاهتمام بتعليم اللغة العربية وتطوير مناهجها وكتبها لتلائم حاجات الحياة العقلية والعملية فى العصر الحديث .

والمتتبع لحركة إصلاح التعليم فى السنوات الأخيرة يلحظ أن أفكار طه حسين ومبادئه لم تذهب أدراج الرياح ، أو تبقى حبيسة المؤلفات والكتابات ، فقد وضعنا هذه الأهداف وتلك المبادئ نُصب أعيننا ونحن نضع استراتيجية التعليم ونرسم سياسته ونضع خططه ومشروعاته وبرامجه التنفيذية ، فقد تبنت السياسة التعليمية الحالية أهدافًا طويلة الأجل لنظام التعليم فى مصر تتلخص فى :

١ – التأكيد على بناء الشخصية المصرية القادرة على مواجهة تحديات المستقبل .

٢ – إقامة المجتمع المنتج .

٣ – تحقيق التنمية الشاملة (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) .

٤ – إعداد جيل من العلماء .

أما استراتيجية تطوير التعليم فقد تضمنت سبعة محاور للتعليم قبل الجامعى ، وثلاثة للتعليم العالى والجامعى ، وأذكرها بإيجاز على النحو التالى :

١ – فعالية ديمقراطية التعليم .

٢ – التوسع فى التعليم الفنى ورفع مستواه الكيفى .

٣ – رفع المستوى الكيفى للتعليم .

٤ – تطوير نظام التعليم الثانوى .

٥ – حسن إعداد المعلم وتأهيله ورفع مستواه .

٦ – فعالية الإدارة التعليمية .

٧ – تحويل التعليم .

٨ – الاهتمام بالتعليم الفنى التكنولوجى .

٩ – استحداث أنماط جديدة للتخصصات بالجامعات وتحديث تجهيزات الجامعات .

١٠ – العناية بالدراسات العليا والبحوث .

أما خطة إصلاح التعليم التى أقرتها لجنة الخدمات ثم مجلس الوزراء فمجلس الشعب فتتضمن عشرات المشروعات والبرامج العملاقة التى تحقق أحلام طه حسين فى اصلاح التعليم وزيادة مردوده وتحسين مخرجاته .

وإذا نظرنا إلى سجل طه حسين وزير المعارف نجده سجلا حافلا بالإنجازات ، مليئا بالقرارات الجريئة ، والتوجيهات الحاسمة ، ففى عهده تم إعادة تنظيم المجلس الأعلى للتعليم الذى يرسم السياسة ويضع الخطط ويقر قواعد التنفيذ ، كما أنشىء مجلس أعلى للجامعات برئاسة وعضوية مديرى الجامعات ووكلائها وعميد الكلية المختص عند النظر فى المسائل المتعلقة بكليته ، ويتولى سكرتير عام جامعة القاهرة (فؤاد الأول عند ذاك) هذا المجلس .

وفى عهد طه حسين صدر القانون رقم ٩٣ لسنة ١٩٥٠ بإنشاء وتنظيم جامعة إبراهيم باشا الكبير (عين شمس حاليا) ، كما صدرت عدة قوانين بإنشاء معاهد بجامعة القاهرة (فؤاد الأول عند ذاك) أصبح فيما بعد كليات مثل معهد الوثائق والمكتبات ومعهد العلوم السياسية ، وفى عهده أيضا وبموجب القانون ١٣١ لسنة ١٩٥٠ تم ربط درجات أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية بدرجات رجال القضاء والنيابة .

وفى عهد طه حسين تم تنظيم التعليم الثانوى إلى عام وزراعى وصناعى وتجارى وطرازى (نسوى فنى) وتقسيم الدراسة فى الثانوى العام إلى مرحلتين : المرحلة الإعدادية ، ومرحلة الثقافة التى تليها سنة توجيهية تقسم الدراسة فيها إلى علمى وأدبى . (وهو النظام الذى عدنا إليه الآن بتأجيل الشعب إلى الصف الثالث الثانوى) .

وتسجيل لوزارة طه حسين الفضل فى إلغاء ثنائية المدرسة الأولية والمدرسة الابتدائية ، وفى عام ١٩٥١ قرر أن يكون التعليم إجباريًا بين سنى السادسة والثانية عشرة .

وقد أنشئت نقابة المهن التعليمية بالقرار ١٠٤٤٤ لسنة ١٩٥١ والمؤيد بالقانون ٢١٩ لسنة ١٩٥١ وقدمت لها الوزارة دعمًا ماليا .

وهذا قليل من كثير من فكر طه حسين التربوى ، ومن إنجازاته فى مجال التعليم ولا شك أن فكره التربوى يستحق منا كل تقدير وإعجاب ، بل إننا نرى فيه القدوة

الحسنة ، ونعترف له بالريادة والسبق فى اقتحام مشكلات التعليم ومحاولة إيجاد الحلول الناجحة لها ، أما عن الجامعة فإننى أنقل هنا قول طه حسين عن رسالتها !

«إن الجامعة لا يتكون فيها العالم وحده ، وإنما يتكون فيها الرجل المثقف المتحضر الذى لا يكفيه أن يكون مثقفًا ، بل يعنيه أن يكون مصدرًا للثقافة ، ولا يكفيه أن يكون متحضرًا ، بل يعنيه أن يكون منميا للحضارة ، فإذا قصرت الجامعة فى تحقيق خصلة من هاتين الخصلتين ، فليست خليقة أن تكون جامعة ، وإنما هى مدرسة متواضعة من المدارس المتواضعة ، وما أكثرها ، وليست خليقة أن تكون مشرق النور للوطن الذى تقوم فيه ، والإنسانية التى تعمل لها ، وإنما هى مصنع من المصانع ، يعد للإنسانية طائفة من العلماء ومن رجال العمل ، محدودة آمالهم محدودة قدرتهم على الخير والإصلاح» .

طه حسين سيظل تراثه وفكره وعلمه حيًّا فى ضمير هذه الأمة وفى عقل أبنائها لأجيال قادمة ، وسوف يظل رجال التعليم يذكرونه بالفضل والتقدير ، فقد أسهم بفكره التقدمى ومنهجه الشامل فى رفع شأن التعليم والنهوض به إلى مستوى المهن الرفيعة .

وفقنا الله جميعًا لما فيه خير الوطن ...

أحمد فتحى سرور

obeikandl.com

مقدمة

أغرانى بإملاء هذا الكتاب أمران : أحدهما ما كان من إمضاء المعاهدة بيننا وبين الإنجليز فى لندرة . ومن إمضاء الاتفاق بيننا وبين أوربا فى منترو ، ومن فوز مصر بجزء عظيم من أملها فى تحقيق استقلالها الخارجى وسيادتها الداخلية .

وقد شعرت كما شعر غيرى من المصريين ، وكما شعر الشباب من المصريين خاصة وإن باعدت السن بينهم وبينى بأن مصر تبدأ عهدًا جديدًا من حياتها إن كسبت فيه بعض الحقوق ، فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة وتبعات ثقال .

وما كان أشد تأثرى بهذه الحركة اليسيرة الساذجة التى دفعت فريقًا من الشباب الجامعيين فى العام الماضى ، إلى أن يسألوا المفكرين وقادة الرأى عما يرون فى واجب مصر بعد إمضاء المعاهدة مع الانجليز . فقد أقبل هؤلاء الشباب الجامعيون يسألوننا أن نبصرهم بأمورهم ، ونهديهم إلى واجباتهم ، وجعل كل منا يتحدث إليهم فى ذلك حديثًا سريعًا مرتجلا بمقدار ما كان يسمح له وقته وعمله وتفكيره السريع فى حياة سريعة تمر بنا أو نمر بها مر البرق .

وقد تحدثت إلى هؤلاء الشباب فيمن تحدث ، ولكنى لم أقتنع بكفاية ما تحدثت إليهم به ، ولم أر أنى قد دللتهم على ما كان يجب أن أدلهم عليه ، وهديتهم إلى ما كان يجب أن أهديهم إليه ، واستقر فى نفسى أن واجبنا فى ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطرًا وأشد تعقيدًا مما تحدثت به إليهم فى ساعة من نهار ، أو فى ساعة من ليل لا أدرى وفى قاعة من قاعات الجامعة الأمريكية ، وأنه يحتاج إلى جهد أشق وتفكير أعمق وبحث أكثر تفصيلا ، ووعدت نفسى بأن أبذل هذا الجهد ، وأفرغ لهذا البحث ، وأنهض بهذا العبء ولكن لم أنبئ هؤلاء الشباب بشيء مما قدرت ، لأنى أشفقت أن تحول ظروف الحياة بينى وبين إنجاز هذا الوعد . وليس أشق على من وعد أبذله للشباب ، ثم لا أستطيع له إنجازًا .

والأمر الثانى أن وزارة المعارف ندبتنى لتمثيلها فى مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكرى ، الذى عقد فى باريس فى صيف السنة الماضية ، وأن الجامعة ندبتنى لتمثيلها

فى مؤتمر التعليم العالى الذى عقد فى باريس فى صيف ذلك العام أيضًا . وقد شهدت هذين المؤتمرين ، واشتركت فيما كان فيهما من حوار ، وشهدت مؤتمرات أخرى عقدت فى باريس أثناء ذلك الصيف ، حتى قضيت شهرًا أو نحو شهر أشبه شيء بالطالب الذى يختلف إلى الدروس والمحاضرات فى مواظبة ونظام .

وكانت كل هذه المؤتمرات على اختلافها تدرس الثقافة من بعض أنحائها . وقد سمعت فيها آراء وشهدت فيها أشياء ، وأثار ما سمعت وما شهدت فى نفسى خواطر وعواطف وآمالا ، لم أر بدا من تسجيلها ، فمنيت نفسى بأن أنتهز فرصة هذه الخواطر والعواطف ، لأنجز ما وعدت به الشباب الجامعيين فيما بينى وبين نفسى .

وكان الحق على أن أرفع بعد عودتى إلى مصر تقريرًا إلى وزارة المعارف وتقريرًا إلى الجامعة ، وأن أعرض على هذه ما رأيت فى مؤتمر التعليم العالى ، وعلى تلك ما رأيت فى مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكرى . وأى شيء أيسر على من شهد مؤتمرًا من أن يرفع تقريرًا عن هذا المؤتمر إلى الذين أرسلوه إليه . ذلك شيء جرت به العادة ، وقضى به النظام وليس المهم أن يقرأ التقرير وإنما المهم أن يكتب ، وليس المهم أن يدرس ما فى التقرير من رأى ، ويؤخذ بما فيه من صواب ، وإنما المهم أن يحفظ التقرير فى عطف من أعطاف الوزارة ، وفى غرفة من غرفاتها ، ليرجع إليه ذات يوم ، أو لينام إلى آخر الدهر !

ومهما يكن من شيء فإنى لم أرفع تقريرًا إلى وزارة المعارف ولا إلى الجامعة ، لأن ظروف الحياة السياسية فى مصر قد صرفت وزارة المعارف والجامعة عن قراءة التقارير وحفظها ، وصرفتنى أنا عن تنميقها وتدبيجها ، ولكنى كنت أسر فيما بين نفسى أن هناك شيئًا خيرًا من كتابة تقرير يقرأ ويؤخذ به ، أو لا يلتفت إليه ، وهو إنجاز ذلك الوعد الذى قدمته إلى الشباب الجامعيين ولم أظهرهم عليه .

وكنت أقول لنفسى ، إن إنجاز هذا الوعد سيكلفنى من الوقت والجهد أكثر مما تكلفنى كتابة تقرير أو تقريرين ، ولكنه سيكون أكثر فائدة وأعم نفعًا . سينتج كتابًا ضخمًا ، وسأقدم من هذا الكتاب الضخم نسخة إلى وزارة المعارف مكان التقرير ، وستصنع وزارة المعارف بهذا الكتاب ما كانت ستصنعه بالتقرير لو قدم إليها . وسأسلك هذه الطريقة نفسها مع الجامعة ، وستصنع الجامعة بهذا الكتاب صنيعها بعشرات التقريرات التى ترفع إليها فى كل عام ، توزع نسخًا منه على أعضاء مجلس الجامعة ليقرأوها أو ليهملوها .

ولكن الكتاب سيذاع فى الناس وسيقرؤه المثقفون ، سواء منهم من إليه أمر من أمور السلطان ، ومن لا ناقة له فى السلطان ولا جمل ، كما يقول الشاعر القديم . وسيقرؤه الجامعيون وغير الجامعيين ، وسيجدون فيه صورة للواجب المصرى فى ذات الثقافة بعد الاستقلال كما يراه مصرى مهما يقل فيه ومهما يظن به ، فلن يتهم فى حبه لمصر وإخلاصه للشباب المصريين .

ومن يدرى ! لعل هذا الكتاب كله أو بعضه سيقع موقعًا حسنًا من بعض الذين إليهم أمور التعليم ، ولعلهم أن يأخذوا ببعض ما فيه من رأى .

ومن يدرى ! لعل هذا الكتاب كله أو بعضه أن يقع موقعًا سيئًا من بعض الناس ، ولعلهم أن ينقدوه ، وأن يثيروا حوله هذا الجدال الخصب ، الذى يجلى وجه الحق فى كثير من الاحيان . وهو على كل حال سينبئ الشباب بأن أساتذتهم وآباءهم الذين يقسون عليهم أحيانا ، ويكلفونهم كثيرًا من الجهد والعناء أحيانًا أخرى ، ويظهرون لهم الغلظة والجفوة فى كثير من الظروف ، إنما يقدمون على ذلك لأنهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم ، وأكثر مما يحبون أنفسهم . ولأنهم يؤثرونهم بالخير ، ويختصونهم بالبر ، ويحرصون أشد الحرص على أن تكون أجيال الشباب خيرًا من أجيال الشيوخ ، وعلى أن يحقق الشباب لمصر من المجد والعزة ومن النعمة والرخاء ما عجز الشيوخ عن تحقيقه .

وإذًا فليس غريبًا أن أقدم هذا الكتاب هدية إلى الشباب الجامعيين ، تصور ما يملأ قلبى لهم من حب ونصح ، ومن إيثار وإخلاص .

مورزين ٣١ يوليو سنة ١٩٣٨